د . أدونيس

خواطر حول مظاهر التخلف الفكري في المجتمع العربي

— ١ —

يفترض الكلام على التخلف الفكري في المجتمع الاسلامي العربي تحديدا لمعنى التقدم . ولا يتضح معنى التقدم الا اذا عرفنا تصور الفكر العربي للعلاقة بين الانسان كمنتج او كذات ، والطبيعة كموضوع او كمجال للانتاج . وهذا ما يعيدنا ، بالضرورة الى تحديد معنى العقل من جهة ، والفكر من جهة ثانية كما نشأ وتأسس في التراث الثقافي العربي .

— ٢ —

سأختار الامام ابا حامد الغزالي مصدرا تراثيا نموذجيا لتحديد هذا المعنى . ذلك انه نموذج يمكن وصفه بانه ساد الثقافة العربية، موضوعيا . اعني انه لم يكن هامشيا ، ولا رفضيا ، ولا تجاوزيا. وانما كان امتدادا وتبلرا لما ترسخ في الحياة والثقافة العربيتين ، انه ، على الصعيد المبدئي ، يمثل الاصول ويمثل بالتالي تأصيل الاصول . ثم انه ، على الصعيد التاريخي ، يمثل قوة المؤسسة العربية، السياسية والثقافية ، التي وقفت في وجه البدعة ، اي في وجه كل التيارات التي كانت تحاول ان تعطي للاسلام وللحياة العربية ابعادا لم تكن موجودة في الاصول . وهو ، لذلك ، الفكر الذي تقبله الثقافة العربية السائدة ، وتعتبره اصلا عظيما من اصولها . واذا كانت لا تجد فيه الشمول الذي تطلبه ، فانها لا تعترض على ما قدمه ، ولا ترى فيه ما يخالف اي اصل من الاصول. وهو ، اخيرا ، نموذج الفكر الذي ما يزال مستمرا فاعلا سائدا في المجتمع العربي .

— ٣ —

نوجز اراء الغزالي في العقل والفكر ، في النقاط التالية :

اولا — العقل محدود ، واستخدامه مشروط بالقرآن والشرع . ونسبته اليهما كنسبة البصر الى نور الشمس . كما ان العين لا ترى الا في الضوء، فان العقل كذلك لا يرى الا في ضوء القرآن والشرع .

ثانيا — الفكر هو استخدام العقل للوصول الى المعرفة .

ثالثا — مجال الفكر او موضوعه اما ان يكون الانسان في علاقته بالخالق ، واما ان يكون الخالق . من الناحية الاولى يبحث الفكر فيما يحبه الله للانسان وفيما يكرهه . ومن الناحية الثانية، يظل الفكر عاجزا قاصرا . فالانسان العادي يعرف الله اقل مما يعرفه الانسان العالم او الولي . وهذان يعرفان اقل مما يعرف الانبياء، وهؤلاء يعرفون اقل مما يعرف النبي محمد ، ومعرفة الانبياء جميعا دون معرفة الملائكة المقربين .

رابعا — العلم لذاته محمود ، لانه من صفات الله . لكن علم الانسان يكون مذموما او محمودا : مذموما اذا تناقض مع الشرع، او اذا لم يكن مفيدا الفائدة التي يقررها الشرع ويدعو لها ، ومحمودا اذا كان شرعيا . لذلك لا يطلب العلم لذاته الا اذا كان علما بالله . وما عداه فيطلب لفائدته فيما لا يتناقض مع الشرع .

خامسا — حتى العلم الذي لا يطلب لذاته والذي لا يتعارض مع الشرع انما هو فرض كفاية ، كالطب والفلاحة والسياسة . اي لا يجوز الاستقصاء فيه من جهة ، ويكفي ، من جهة ثانية ، ان يقوم به واحد لكي يسقط عن الاخرين .

سادسا — العلم اذن (او الثقافة ، بمصطلحنا الحديث) هو العلم بالقديم او بما يكون تفسيرا للقديم ، او بما لا يتعارض معه بل يكمله . ويترتب على ذلك امران ، الاول، رفض كل محدث يتعارض مع القديم ، وان اتفق عليه الجمهور ، والثاني هو ان العلم موجود في الماضي وان اكثر الخلف علما هم الاكثر تشبها بالسلف .

سابعا — الفكر هو الاصل . العلوم والاحوال والاعمال ثمرته . العمل يتبع الحال ، والحال يتبع العلم ، والعلم يتبع الفكر .

ثامنا — دور العقل هو في ان يهدي الى صدق النبي والى فهم سنته . وفيما عدا ذلك يجب اطراحه ، ولزوم الاتباع . فالمعرفة او الثقافة الحقيقية ، حتى حين تكون عقلية ، هي الثقافة الدينية وما يعرف في ضوئها وعلى هديها . العقل ، بتعبير اخر ، يكون شرعيا، او لا يكون . وهكذا يكون مجال الفكر الظاهر لا الباطن ، والمعلوم لا المجهول ، والمخلوق لا الخالق .(١) .

— ٤ —

هذا الفكر ، بقواعده وغاياته ، هو الذي يسود المجتمع العربي، اليوم . ولذلك فان الايديولوجية السائدة ، سواء في المدرسة والجامعة والبرامج التربوية ، والصحافة والاذاعة والكتاب ، انما هي قوة ارتداد نحو الماضي ، وقوة محافظة على الراهن الموروث .ومع ان حركات التغير التي حدثت في العقود الاخيرة ، قامت باسم الجماهير فانها لم تبن اية سلطة للجماهير ، عمالا او فلاحين ، ومع انها قامت باسم القضاء على علاقات الانتاج الموروثة ، فان هذه العلاقات ما تزال هي السائدة ،ومع انها قامت باسم تجاوز البنية الايديولوجية التقليدية ، فان هذه البنية ما تزال كذلك ، هي السائدة . لقد عجزت هذه الحركات عن توليد نمط جديد من الحياة ومن التفكير. لذلك تلعب هي نفسها دورا اساسيا في عرقلة انضاج الشروط الموضوعية للتغير الثوري ، خصوصا ان الجماهير التي تسيطر عليها وتوجهها ما تزال تتشرب الايديولوجية الموروثة بحيث ان هذه الايديولوجية تشكل قوة تعزلها عن كل تحرك ثوري جذري . وما يزال التطابق القديم بين تصور الواقع وتدبيره ، اي بين الدين والسياسة، قائما وفعالا .

— ٥ —

احدد التخلف بانه نزعة التمحور حول الماضي ، واحدد التقدم ، على العكس ، بانه نزعة التمحور حول المستقبل . انطلاقا من هذا التحديد ارى ان مظاهر التخلف الفكري في المجتمع العربي تتمثل في اربع نزعات سائدة اعرضها تباعا .

اولا — اللاهوتانية ،واعني بها النزعة التي تغالي في الفصل بين الانسان والله وبين الطبيعة والله ، وتجعل من التصور الديني لله، الاصل والمحور والغاية . البعد الميتافيزيقي للاهوتانية هو ان الروح هي المبدأ الذي يؤسس الوجود . فالعالم ثنائية : روح ومادة ، نفس وبدن ، والاولية للروح ، ولها وحدها الكمال والديمومة .فالانسان موجود اولا في الروح . لا يجيء الى الارض من الارض ، بل يجيء من السماء . فهو ، اصلا ، ليس نموا طبيعيا ، ليس جزءا من الطبيعة . على العكس ، ان وجوده في الطبيعة سقوط . انه امتحان ، ولا بد له ، لكي ينجو ، من ان يتجاوز الطبيعة . فالطبيعة عدوه الاول. على هذا البعد ، قامت المفاهيم وتأسست القيم في المجتمع العربي، وهي المفاهيم والقيم التي ما تزال سائدة . فمن هذا البعد ينبثق مبدأ النظر والعمل في المجتمع العربي . ويتمثل هذا البعد نظريا ، في اعتبار الوحي المصدر الاول للمعرفة الانسانية ، والمصدر اليقيني الكامل النهائي . ويتمثل عمليا في اقامة مجتمع على الارض بمقتضى هذا الوحي الهابط من السماء . فالوحي يهدف الى انقاذ الارض ،اي الى ترويضها لكي تكون على صورة السماء. ومن اجل هذا الترويض، يجب ان تنتظم الحياة الانسانية في اشكال خاصة تكفل تحقيقه على الوجه الاكمل .

---

(١) اعتمدنا في استخلاص هذه النقاط على كتاب: احياء علوم الدين، طبعة دار الشعب (القاهرة ، دون تاريخ) : ١/١٤٠ ، ١٤٥ — ١٤٦ ، ١٥٢ ، ٢٨ — ٣٠ ، ٣٨ — ٣٩ ، ٦٤ — ٦٦ ، ١٣٥ ، ٥٢ — ٥٣ ، و٨/١٣٦٨ ، و١٥/ ٢٧٩٧ — ٢٨٠٠ ، ٢٨٣٣ — ٢٨٣٤ .

من هنا انعكس البعد الدنيوي للاهوتانية على الحياةالاجتماعية والسياسية ، فتشبثت اللاهوتانية في الامة او الجماعة او الدولة . فليست الامة او الجماعة او الدولة الا اسقاطا لاهوتانيا ،اي ليستالا تجريدا غيبيا . واذا كانت اللاهوتانية شكلا من وجود الانسان في غير ذاته ، فان ارتباط الفرد، على الصعيد الاجتماعي ،بكيان تجريدي هو ايضا شكل من وجود الانسان في غير ذاته . وان يكون الانسان موجودا في غير ذاته يعني انه موجود في آلة ، اي ان ذاته ليست له ، بل لغيره .

والواقع ان التقليد الديني اكد ، تاريخيا ، البنية الاساسية الاولى للمجتمع العربي الجاهلي ، اعني النظام الابوي . الانسان في هذه البنية موجود كميا لا نوعيا . فحياته مرسومة سلفا : سياسيا وفكريا . عليه ، سلفا ، ان يفعل هذا بأمر وان يترك ذلك بنهي . انه يولد بين طرفين : الامر والنهي .

وكل نظام ابوي مثالي، من جهة ، وقمعي ، من جهة ثانية .مثالي لانه لا يعني بالتجربة الحية ، والتغير التاريخي، قدر عنايته بالنموذج الاصلي الثابت . وقمعي ، لانه يأطر السلوك والفكر، بمقتضى هذا التصور المثالي ، ويحول دون اي شكل من اشكال الخروج عليه . فمن يخترق ما شرعه الاسلاف او اسسوه كانه يقتل هؤلاء الاسلاف انفسهم. ومن هنا التمسك بالماضي ، في الحياة العربية . فهو ليس الا مظهرا من مظاهر التمسك بسلطة الاب وشريعته . وهكذا يعيش العربي بين مثاليتين : مثالية البداية : العرب خير امة، ومثالية النهاية : الجنة التي هي وعد الله . فهو لا يعيش بمنطق الارض والتاريخ،وانما يعيش بمنطق هذه البداية وتلك النهاية .

يجد النظام الابوي صورتهالسياسية في الدولة . الدولة ورئيسها في المجتمع العربي قوام المجتمع كما ان الله قوام العالم . وليس التشريع الذي تفرزه الدولة الا انعكاسا لارادة السماء . وعلى هذا فان الفكر يجب ان يكون تفسيرا للصلة بين الانسان والسماء ، عبرعلاقته بالدولة . يجب ان يكون ، بمعنى اخر ، انعكاسا لهذه العلاقة التي تخضع فيها الارض للسماء خضوعا مطلقا . ومن هنا ليست الفلسفة ، مثلا ،او الفن اشكالا من الوعي الاجتماعي تنشأ بالتجربة وانما هي اسقاط من اعلى .

وفي هذا المنظور يتحدد التقدم على الارض بمدى تبعيتها للسماء، وتحدد سعادة الفرد بمدى تبعيته للدولة . ولهذه التبعية قوانين ثلاثة: محاكاة الاصل وعدم ابتداع ما يتعارض معه او يشكك فيه « اي محاكاة الدولة » ، والثاني تكييف العالم والانسان وفقا لمقتضيات الاصل (اي لا راي الا رأي الدولة) ، والثالث هو نفي الخروج على ما استقر بمقتضى الاصل واعتباره انحرافا او اعوجاجا يجب تقويمه (اي لا معارضة للدولة). وتجد هذه القوانين تجلياتها في مفاهيم :الوحدة والانسجام والتوفيق . وتعني الوحدة نفي التناقض في المجتمع ، ويعني الانسجام نفي الصراع ، ويعني التوفيق نفي الثورة .

ليس التقدم اذن الا شكلا عاليا من المحافظة على الاصل .ذلك انه مهما اتسع العالم وتنوع فان الاصل يظل اكثر اتساعا وتنوعا. التقدم ، بهذا المعنى هبة من فوق ، من السماء ، وليس نتيجة العمل والفكر الانسانيين . فهذان لا قيمة لهما بذاتهما ، وانما تكمن قيمتهما في مدى توكيدهما على الاصل وتعبيرهما عنه وتكيفهما معه .

هكذا يعيش الفرد العربي غريبا عن ذاته ، بدئيا . فهو ، من البدء ، موجود : دينيا ، في السماء ، ودنيويا في الامة ـ الدولة . وفي هذا ما يقدم عنصرا اساسيا لتفسير الظاهرة السائدةاليوم في المجتمع العربي : من جهة ، بنية قمعية يسوغها النظام القائم باللاهوتانية واسقاطها الاجتماعي . ومن جهة ثانية ، رفضية ترمز الى ان العربي لا يشعر انه موجود في ذاته الا لحظة يتحرر من اللاهوتانية ومن تشيئها الاجتماعي ـ السياسي . بل لعلنا نجد في ذلك اساسا لتفسير سيادة مستويين من الثقافة في المجتمعالعربي: ثقافة تمجيد النظام الراهن الموروث ، وثقافة التناسل والاكل . والعربي في الحالتين محصور في المستوى الالي ـ الحيواني للحياة الانسانية ولا يقدر ان يمارس جوهره الانساني : حريه الابداع ،سواء في الفن او الفلسفة ، او الدين او العمل .

ثانيا ـ الماضوية ، واعني بها نزعة التعلق بالمعلوم ورفض المجهول بل الخوف منه وفي هذا ما يفسر ايمان العربي بان الانسان لا يقدر ان يتكيف الا مع الاشياء والافكار التي يستطيع خياله ان يجاريها ويقبل بها ، اما تلك التي يعجز عن تفسيرها ، فانه يرفضها ولا يواجهها . هكذا حين كان العربي يواجه شيئا من خارج تراثه ،يحاول اولا ، ان يفهمه بالمقارنة معه ، اي مع ما يفهمه . وحين لا يكون ثمة مجال للمقارنة ، فقد كان هذا الشيء يبدو له مشوشا ومخيفا وخطرا . المهم ، بالنسبة اليه ، هو الواضح، هو ما يفهمه ويسمح له بالتوجه في الطبيعة والثقافة ، في الحياة والمجتمع . ومن هنا اخذ العربي ينطلق ، بدئيا ،في سلوكه وتفكيره ،من اليقين بانه ناقص ، وظيفيا ، اذا لم تكن له نماذج ثقافية ـ اي انه يفقدحس التوجه والحركة ويفقد السيطرة على ذاته ويتحول الى سديم . بل يشعر ان وجوده يتوقف على استمرار الرموز الماضوية ومنظوماتها . وهو يسلك ازاء من يهددها ، شكا او رفضا ، مسلكا عنفيا .وفي تاريخ الفكر العربي ما يكشف عن هذا المسلك مما يعرفه الجميع .

هكذا يستخدم العربي موروثه لكي يعرف كل شيء ، وما لا يضيئه هذا الموروث لا يكون جديرا بأن يعطي اية قيمة . كانه يشعر ان المجهول يهدد طاقته على الفهم ، ويهدد موروثه الذي يرى فيهالكمال والعصمة . فما يتجاوز حدود معرفته المكتسبة ، وبخاصة ، الدينية يجعله في قلق وحيرة ، ويؤدي ، كما يعتقد ، الى ضلاله . وبهذا المعنى نفهم دلالة الموقف من البدعة ، في الماضي ، وندرك فيالمرحلة الحاضرة الدلالة في صراع الافكار داخل المجتمع العربي بدءا مما سمي بعصر النهضة حتى اليوم . فهو يكاد ان يكون استعادة للصراع الماضي بين قيم الثبات الماضوية ،وقيم التحولالمستقبلية ،حتى ليبدو غالبا انه يجري بالكيفية الماضية ذاتها ، تقريبا ، وبالوسائل القمعية والانعتاقية ذاتها تقريبا .

ثالثا ـ نزعة الفصل بين المعنى والكلام واعتبار المعنى سابقا ،وليس الكلام الا صورة له او رسما تزيينيا . وهذا ما تضيئه التجربة التاريخية ذاتها . فالعربي يفضل الخطابة على الكتابة ، ذلك ان الخطابة اقرب الى محاكاة النطق الالهي او الوحي ، اي المعنى ، من الكتابة . الكتابة ليست الا النطق وقد سقط فيالزمان . انها اصل شاحب للنطق ، وهي لا تمثل من الوجود الا ظله . انها ، بتعبير اخر، قناع النطق ، اي انها لا تمثل ، لحظة حضورها الكامل ، الا الغياب الكامل .

وفي كل تطور حضاري يتطابق الشكل والوظيفة بحيث ان تغير الوظيفة يستتبع تغير الشكل . لكن مع ان وظيفة الشعر في المجتمع العربي تغيرت في الاسلام عما كانت عليه في الجاهلية ،فان شكله لم يتغير . وهذا مما اكد الانفصال بين الكلام والمعنى ، او الشكل والمحتوى ، وادى الى ان يصبح التعبير الشعري نوعا من المطابقة بين الكلام والمعنى القديم ،اي الموجود قبليا . هذا المعنى هو الحق اي هو الاسلام وقيمه . وفيهذا ما يكشف من جهة، عن الاسباب التي جعلت العربي ينظر الى جاهلية اللغة والشعر، من منظور ديني ، ذلك ان اعجاز القرآن يقوم في بعض جوانبه الاولى على الاعجاز الجاهلي . وحين تحدى القرآن الشعر الجاهلي تحداه من حيث انه المثال الكامل للبيان والفصاحة ، ومن هنا اكتسبت اللغة العربية الجاهلية والشعر الجاهلي بعدا دينيا ، واصبح العربي يصدر في نظرته الى ماضيه الثقافي الجاهلي عن شعور ديني . وفي هذا ما يكشف من جهة ثانية ، عن معنى المطابقة مع القديم . فالقديم اصل كامل وعلى ما يجيء بعده ، انيتكيفمعه ويصدر عنه والمطابقة اخلاقية ولغوية : الاخلاقية هي ان نطاق سلوك الخلفمع النموذجالاصلي السلفي للسلوك . واللغوية هي ان يتطابق تعبير الفرد مع النموذج البياني الاصلي للتعبير . وتنطلق المطابقة مع القديم من الايمان بان

القديم هو وحده الحق ، وبان الحق ثابت لا يتغير وان على الانسان ان يتكيف معه ، وبان الحق واضح، لذلك يجبان يكون التعبير عنه واضحا ، وان الحق عقلي منطقي ، لا عاطفي انفعالي ولذلك يجب استبعاد التخيل ، فالتخيل درجة متوسطة بين الحس والعقل ،لا يوصل الى معرفة يقينية ،بل على العكس يوهم ويضلل ، وبان المجاز اخيرا يجب ان يستبعد ، فالكلمات هي لما وضعت له اصلا ، ولا يجوز ان يحيد بها التعبير عن معناها الاصلي . واستبعاد المجاز هو المقابل اللغوي ـ البياني لاستبعاد التأويل ، على الصعيد الفلسفي ـ الديني .

هكذا يكون الشعر (والثقافة ، بعامة) العربي القديم مثلا ، بالنسبة الى الحديث ، في مقام الاجمال ، كما ان القرآن مثلا ، بالنسبة الى الفكر الديني ، في مقام الاجمال ،وما يأتي بعده فيمقام التفصيل . فالتفصيل هو لسان الاجمال وترجماته وشرحه ومرآته . والمفصل اذن ليس ابتكارا وانما هو شرح للمجمل ومظهر له . وهذا يعني ان الاقدم هو ، بالضرورة ، الافضل ، وان الاسبق هو ،بالضرورة، الاعلم من كل لاحق . فالنور العربي واحد : اوله ، الوحي ، دينيا ، والشعر الجاهلي اوله ، شعريا . والافضليةتتدرج تبعا لتدرجالقرب من الاول . وليست الحياة اليومية الا تمرسا بمحاكاة الأول .وهذا يعني ان الشعر ، شأن الدين ، يحدد بنشأته الاصلية الكاملة . فكما ان الدين تدين اي تكرار طقسي ، فان الشعر كذلك هونوع من التمرس بفهم الماضي واستعادته في تكرار طقسي .

رابعا ـ نزعة التناقض مع الحداثة : ففي القديم ، بالنسبة الى العربي ، طاقة لكي يكون مصدرا لمفاهيمه ، الخاصة والعامة ، لا فيما يتصل بشخصه وحده ،بل فيما يتصل ايضا بالعالموعلاقته مع العالم . القديم ، بتعبير اخر ، طاقة تنبعث منها وظائف ثقافية ، ومن هذه الوظائف تتولد وظائف اخرى اجتماعية ونفسية . وهذا يعني ان شخصية العربي ، شان ثقافته ، تتمحور حول الماضي ـ القديم . وفي هذا ما يكشف عن التناقض في موقفه من الحداثة الغربية ـ فهو يأخذ منجزاتها ، لكنه يرفض المبدأ العقلي الذيابدعها. والحداثة الحقيقية هي في الابداع لا في المنجزات بذاتها . فهو اذن يرفض الحداثة الحقيقية : المغامرة في اكتشاف المجهول وقبوله، من اجل مزيد من السيطرة على الطبيعة وتغيير العالم .

ـ ٦ ـ

نشأ الاسلام في عالم كان الله فيه والواقع معا ، الروح والجسد معا . كان ثمة وحدة بين الالهي والانساني . الانسانصورة الله ، والله ، تجسد وصار انسانا . وكانت هذه الوحدة مبدأ العالم ومحوره : بهما يبدأ التاريخ واليهما ينتهي . ومن هنا كانتالحرية مطلقة ولا نهائية . ففيها يتوحد الانسان بالله، اي بالقدرة غير المحدودة التي ينتمي اليها .

اما الاسلام فقد فصل بين الله والانسان ، والغى مبدأ الوحدة بينهما . وجعل امر الدنيا وتدبيرها يتمان بمقتضى الدين .وقد طبق المسلمون الاول هذا النظر بحيث اصبحت ممارسة السلطة الدنيوية ، اي السياسة ،هي النواة التي يتكون حولها التاريخ : الدين هو المطلق الذي يوجه العالم النسبي ويسيطر عليه ، والتاريخ بناء للدنيا بروح الدين .

ومن هنا اصبح صاحب السلطة على الصعيد العملي، او من يكون في موقعها ، هو الشخص الوحيد الحر .ومثلهذه الحرية تفترض حتما اللاحرية عند جميع الاشخاص الذين لا يكونون في موقع السلطة ،اي انها تفترض عبودية الاخر . فالاخرون فيالبنية الاجتماعية الاسلامية ،اي في الممارسة كما تكشف عنها وقائع التاريخ ، غير احرار الا بقدر ما يرون حريتهم في حرية السلطة ، اي بقدر ما يفوضون الامر لصاحب السلطة .

وهكذا كانت الحرية في الاسلام تقابلها العبودية على غرار ما كانت الحال في المجتمعات قبل المسيحية ، وفي اليونان بخاصة. وفي هذا كانت الحياة الاسلامية عودة الى ما قبل المسيحية .وتعني هذه العودة ان الوحي هو رسالة الله الى الانسان ، وانه المبدأالذي ينظم العالم وحياة الانسان ، الصلة بين الانسان والله . فالوحي هو الذي يوجه الفعالية الانسانية ،فيشتى اشكالها .

صار الدين دين النظام ، وتوحد بالواقع السياسي لهذا النظام . صار النظام ينظر الى الواقع من حيث انه واجبالانسجام مع دينه وسياسته في آن . كان النظام تجسيدا لخضوع العالم لله، والواقع للغيب . وصار الفكر انطلاقا من ذلك لا يتعارض مع الواقع ، بل صارا واحدا ، اي صار الفكر والدولة شيئا واحدا . وفي الدولة تجسد دور الدين : كمعرفة الهية ، وكتدبير او علم دنيوي .

ويتجلى الصراع بين الفرد والجماعة (الدولة)في مجال اللغة اولا . فاللغة تمثل المستوى الاول للاندماج بين الذات والموضوع (الفرد والجماعة) . وهي تمثل كذلك المستوى الاول لانفصالالذات، اي لتفرد الفرد وتميزه . اللغة ، بتعبير اخر ، قوة اتصال وانفصال في آن : قوة اتصال من حيث ان الفرد يولد وينمو ويفكر ضمن لغة موجودة قبله . وقوة انفصال من حيث ان الفرد يعرف الاشياء ويسميها ، ويميز نفسه عنها ، ويعي وضعه وما يريده .فكما ان اللغة توحد الفرد مع الجماعة ، فانها تتيح له ان ينفصل عنها ، بان يؤكد تباينه ، وتأخذ اللغة هذا الدور الحاسم ،اتصالا او انفصالا ، في المجتمع العربي ، لان العربي لا يعمل او يملك بقدر ما يلغو . فاللغة ،في المجتمع العربي ، كلام وملك وعمل في آن .

وبما ان الدين ، ارتبط بالدولة ، فيالمجتمع العربي ، ارتباط وحدة تامة ، فقد اتخذت وحدة الفرد مع الجماعة شكلا سياسيا وحقوقيا ، واخذت تخضع للالزامات السياسية والحقوقية . فالخروج على الجماعة ، فكريا ، هو في الوقت نفسه ، خروج سياسي وقانوني . وهكذا حيل بين الانسان وقدرته الوحيدة : اللغة ،وصار الفرد لا يملك ولا يعمل ولا يتكلم : صار مستلبا على جميعالمستويات. وبهذا المعنى يمكن القول ان الانسان العربي لم يولد بعد ، من حيث هو فرد متميز حر ، وليست الجماعة ،هي ايضا ، الا تجريدا. فكان المجتمع العربي لفظ لا غير .

وفي التجربة التاريخية اخذ العربي يتجه لممارسة ما لا يخضع للالزام الديني ، او السياسي . اخذ يتخلى عن اللغة ، كابداع ـ ويتمسك بالشيء كمادة للحياة اليومية . وكان تمسكه بالشيء يزداد تبعا لازدياد شعوره بان الدين او الوحي يحاصره . وهكذا اصبح العربي تستعبده الفكرة ممثلة في الدين ، ويستعبده الواقع ممثلا في اشياء الحياة . باستعباد الشيء له ، يشعر انه حاضر . ان هذا الحضور هو البديل الذي يقدمه له الشيء عن غيابه في استعباد الفكرة له . فالعربي موجود معدوم بين طرفين : الوحي والشيء ، وهو في الحالين غير موجود في ذاته . انه ، في الحالين ،مستعبد، مستلب .

ـ ٧ ـ

اخلص ، فيضوء ما تقدم ، الى القول ان الفكر العربي السائد فكر اتباعي ، لا يؤكد الاتباع وحسب ، وانما يرفض الابداعويدينه. ولهذا يحول دون اي تقدم حقيقي ، لا يمكن بتعبير اخر ، انتنهض الحياة العربية اذا لم تتهدم البنية التقليدية الفكرية السائدة .

هكذا يتوجب على العربي ان يتحرر من كل سلفية ، وان يزيل القدسية عن الماضي ، ويعتبره جزءا من تجربة او معرفة غير ملزمة اطلاقا ، وان يؤمن ، تبعا لذلك ، ان جوهر الانسان ليس في كونه وارثا متابعا ، وانما في كونه خلاقا مغيرا (١) .

---

(١) واضح ان هذه الكلمة تحاول ان تصف الفكر الموروث السائد وتخلفيته . وهذا لا يعني ، بالطبع ، ان المجتمع العربي خلا او يخلو من الفكر الخلاق الذي يرفض ويتجاوز ويستشرف . فمدار هذه الكلمة هو التخلف الفكري وابعاده ، ولذلك لم اتعرض للفكر الخلاق وابعاده، وهو ما ادرسه في كتاب « الثابت والمتحول : بحث في الاتباعوالابداع عند العرب » ، الذي يصدر هذا الشهر .